المسرحيّة والطفل في فترة الثورة الجزائريّة

✍الباحثة معتوق واهيبة
جامعة مولود معمري تيزي وزو

ينقسم المسرح Théâtre، من حيث الجمهور، الى مسرح للكبار ومسرح للصغار، وهو فنّ من الفنون الدراميّة قديم النشأة، يبعث الإحساس بالبهجة والفرح اللّذان يخبئان ورائهما أهدافا تربويّة وتثقيفية يتلقاها المتلقي بشكل ترفيهيّ خفيف على النفس. وهو من أهمّ الوسائل التربويّة الموجّهة للأطفال، لأنّهم يميلون بطبعهم الى تقليد شخصيّة البطل ويتأثّرون بشجاعته، كما يتعلّمون من هذا الفن القيم الأخلاقيّة وتتكوّن لديهم القدرة على التمييز بين الخير والشرّ.

والمسرح الموجّه للطفل Théâtre pour enfant هو المهيّأ خصّيصا للفئة الصغرى من المجتمع، تُراعى فيه مراحل نموّهم ومستواهم اللّغوي والفكري والثقافي؛ يتميّز "بمميّزات، لا تختلف عن مميّزات الأدب الموجّه إليهم، فهو يراعي المرحلة العمريّة، ويتضمّن الى جانب اللّغة والرّسوم، حركات الممثّلين، الحكاية والغناء والموسيقى والألوان والأضواء. وهذه العناصر تثير خيال الطفل وتحفّز وجدانه الى الانفعال والحماس، وتجعله يتعرّف على نماذج من الشخوص والأبطال" [1]. والمسرح أقرب الى الطفل لأنّه يسمح له بمشاهدة أحداث القصّة أمامه ويتفاعل معها ومع الممثّلين الذين هم أقرب حسيّا وجسديّا إليهم. كما أنّ المسرح غنيّ من حيث العرض، فهو مزيج من الأضواء والألوان والأشكال المختلفة، ومن الغناء والنوتات الموسيقيّة المتنوّعة.

وتعتمد المسرحيّة غالبا على الحوار الذي تكون فقراته غير طويلة، بسيطة ومفهومة؛ ويقوم بتمثيلها مجموعة من الممثّلين، قد يكونون من الكبار أو من الصّغار أو من كليهما.

يحقّق المسرح الموجّه للطفل وظائف عدّة أهمّها وظائف تعليميّة وتربويّة وترفيهيّة. وهو من أهمّ الوسائل التي يعتمدها الأولياء والمدرّسون لتربية وتعليم أبنائهم من جهة، وللترويح عنهم من جهة أخرى، فهذا الفن يساعدهم على اكتساب العلم والأخلاق بطريقة ظريفة يكون تأثيرها أكثر فعّاليّة من الوسائل الأخرى.

والاهتمام به قديم النشأة، حيث ظهر في أوّل الأمر على شكل مسرح العرائس، أو الدمى، في مصر؛ كما ظهر أيضا عند اليونانيّين والرّومانيّين منذ فترة بعيدة؛ وقد قُدّم في البداية للكبار والصغار على حدّ سواء، لكنّ المحتوى كان مناسبا أكثر للفئة الصغرى من المجتمع.

المسرح الموجّه للطفل في الجزائر Le théâtre pour enfant en Algérie

نشط الفن المسرحي بالجزائر في فترة ما قبل الاستقلال خاصّة مع جمعيّة العلماء المسلمين Oulémas musulmans، ولم يخصّ هذا الفن جمهور الأطفال فقط، بل وُجّه حتّى للكبار، ويقول **العيد جلّولي** [2] إنّه عند قراءتنا لتلك المسرحيّات نجد أنّ معظمها صالح للصّغار شكلا ومضمونا، ربّما لأنّ هذا الفن كان في فترته الجنينيّة. ويذكر نفس الكاتب بعض الأعمال المسرحيّة الجزائريّة البارزة منها أوّل مسرحيّة شعريّة باللّغة العربيّة الفصحى كتبها **محمّد العابد الجيلالي** قبل الحرب العالميّة الثانية عنوانها **مسرحيّة مدرسيّة في مضار الخمر والحشيش**، وقد نظّم **محمّد العيد آل خليفة** في نفس الفترة مسرحيّة شعريّة خاصّة بأطفال المدارس عنوانها **بلال بن ربّاح** نُشرت سنة 1938 ومُثّلت لأوّل مرّة بمدينة باتنة سنة 1958 بمناسبة المولد النبوي الشريف. وبعد الحرب العالميّة الثانية نشط المسرح في الجزائر، فظهرت مسرحيّات مثل مسرحيّة **الصراع بين الحقّ والباطل لعلي المرحوم**. وكتب **عبد الرحمن الجيلالي** في أواخر القرن العشرين مسرحيّة مدرسيّة تقع في ثلاثة فصول عنوانها **المولد النبوي** طُبعت في الجزائر سنة 1949 ومُثّلت فيها سنة 1951. ويتبيّن لنا من خلال هذه الأعمال أنّ المسرح الموجّه للطفل قد ظهر في فترة صعبة من تاريخ الجزائر التي عانت من الحرب ومن تصليح الخراب الذي سبّبته، بعد انتهاءها؛ وعلى الرّغم من تلك الظروف إلّا أنّ الاهتمام بهذا النوع من الفن كان قائما. ومن خلال المسرحيّات المذكورة، نلحظ تركيزا واضحا على الجانب الدّيني والأخلاقي، لأنّ الدّين، في نظرهم، سلاح من أسلحة الحماية ضدّ الاندماج في الثقافة الفرنسيّة.

وأمّا بالنسبة للغة، فقد كان هناك فريقان، الأوّل "يدعو الى استعمال الفصحى في المسرح حفاظا على المبدأ الوطني والقومي (...) وهذا الرأي هو الذي احتضنه المسرح العربي في الجزائر منذ سنة 1950 الى غاية الاستقلال الوطني (...) وفريق ثاني يدعو الى استعمال العامية في المسرح لأنّها أكثر واقعيّة، وأقوى نفعا، وأغزر إنتاجا وفائدة"[3]. وفي كلتا الحالتين، تبقى اللّغة العربيّة هي المهيمنة على العروض المسرحيّة في تلك الفترة.

موضوعاته Ses thèmes

تعدّدت الموضوعات التي عالجها الفن المسرحي الجزائري لتعدّد العوامل التي تحيط بالفرد في علاقته مع الآخرين ومنه كثرة تجاربه في الحياة، و"هناك اتّجاهان طَغَوَا على موضوعات الفن المسرحي في الجزائر: أحدهما تاريخي، وأحدهما الآخر اجتماعي. وإذا كان الاتّجاه التاريخي من حظّ أقلام الكتّاب بالفصحى، فإنّ الاتّجاه الثاني، في معظم أحواله، كان من نصيب أقلام الكتّاب بالعاميّة"[4] لأنّ الاتّجاه الاجتماعي يمسّ الحياة اليوميّة للشعب الذي يتعامل بالعاميّة في خطاباته وكذلك لأنّ معظمه لم يكن مثقّفا ولا يحسن اللّغة العربيّة الفصحى. ونجد كذلك تنوّعا في الموضوعات التي عالجها المسرح الجزائري الموجّه للطفل، فقد حاول أن يشمل كلّ الأمور التي تحيط به في حياته اليوميّة، ويعالج أمورا مألوفة لديه ويهتمّ بانشغالاته وتساؤلاته ويبتعد عن كلّ ما هو غريب عن بيئته وثقافته،. ومن بين تلك الموضوعات نذكر منها[5]:

الموضوعات الوطنيّة والتاريخيّة Les thèmes nationaux et historiques: كان الغرض من وضع الموضوعات الوطنيّة والتاريخيّة في متناول الأطفال، غرس القيم الوطنيّة في نفوسهم وذلك بتلقينهم الأحداث التي وقعت في فترة الاستعمار ومعاناة المجاهدين لتحرير الوطن من جهة، والاعتزاز بالانتماء الى ذلك الوطن وتمجيده والافتخار بتاريخه من جهة أخرى.

الموضوعات الدينيّة Les thèmes religieux: غطّت هذه المسرحيّات جوانب متعلّقة بالدّين الإسلامي، مثل المولد النبوي الشّريف، وهجرة الرّسول (ص) الى المدينة المنوّرة. ومن بين المسرحيّات التي اتّخذت الهجرة كموضوع لها مسرحيّة **الناشئة المهاجرة لمحمّد الصّالح رمضان** والتي مُثّلت لأوّل مرّة بمدرسة دار الحديث بمدينة تلمسان الجزائريّة في نهاية القرن العشرين، وتم طبعها بمطبعة ابن خلدون بنفس المدينة سنة 1949، وأُعيد طبعها من طرف قسم منشورات الأطفال بالمؤسّسة الوطنيّة للكتاب ضمن سلسلة مسرح الفتيان سنة 1989. وتدور أحداثها في مكّة المكرّمة وتعالج بعض أحداث هجرة الرّسول (ص).

الموضوعات الاجتماعيّة Les thèmes sociaux: كُتبت مسرحيّات في هذا الموضوع تعالج أمور مأخوذة من عالم الطفل وبيئته وانشغالاته، ومن بين تلك المسرحيّات المسرحيّة المدرسيّة **مضار الخمر والحشيش لمحمّد العابد الجيلالي** وكان هدفها دعوة الأطفال الى الابتعاد عن الرذائل المتمثّلة في الجهل والخمر والقمار والحشيش، وحثّهم على الفضيلة.

الموضوعات الفكاهيّة Les thèmes comiques: تكون الفكاهة أحيانا هدفا في حدّ ذاتها وقد تكون وسيلة لمعالجة أمور اجتماعيّة أو غيرها؛ ومن بين المسرحيات الفكاهيّة التي كُتبت في الجزائر نذكر مسرحيّة **الحذاء الملعون لجلول أحمد البدوي** التي نُشرت في مجلّة **هنا الجزائر** سنة 1953 وأعاد قسم منشورات الأطفال نشرها سنة 1989.

ونعتقد أنّها من بين أهمّ الموضوعات التي يمكن أن يتضمّنها المسرح الموجّه للطفل في الجزائر في فترة ما قبل الاستقلال، بالإضافة الى موضوعات أخرى قد لا تكون بنفس القدر من الأهميّة، وجلّها يرمي إلى تحقيق هدف واحد، ألا وهو تعزيز المقاومة ضد الاستعمار وذلك بتكوين جيل يصمد أمام أساليب الترغيب والترهيب التي يمكن أن يتعرّض لها؛ لذلك كان التركيز على الموضوع الوطني والتاريخي والدّيني أكبر لأنّ الوضع الرّاهن يستدعي تسليح الأطفال بالثقافة المحليّة، فهم في سنّ يمكن التأثير عليهم بسهولة من الطرفين. كما كان الترفيه أيضا هدفا فرعيّا يرمي إلى التخفيف عن الأوجاع التي سببتها الحرب.

الهدف من المسرح الموجّه للطفل في الجزائر في تلك الفترة:

L'objectif du théâtre pour enfant en Algérie à cette période

عاش الشعب الجزائري، آنذاك، أزمة شملت كلّ النواحي، وكان الخوف من الفشل في المقاومة يزداد لصعوبة الأوضاع، فشعرت جمعيّة العلماء المسلمين بالحاجة الماسة إلى حماية الأطفال من الاندماج الذي سيولّد فيما بعد عدم المقاومة؛ وبالطبع لم يكن الفن المسرحي الوسيلة الوحيدة التي استُعملت للتأثير على الجيل الصاعد، بل كان ضئيلا بسبب عدم تبلور ثقافة المسرح في الجزائر بعد، وكذلك عدم توفّر الإمكانات اللاّزمة لذلك.

وتمتاز المسرحيّة عن غيرها من الآداب، بتفاعلها مع الجمهور، تأثّر عليه وتسمح له بأن يكون شاهدا لأحداث يستطيع الحكم عليها والمشاركة فيها أحيانا، فيتمّ تصوير الأوضاع، والمبالغة فيها، ليتأثّر الطفل ويستوعب خطورة الوضع، على الرّغم من أنّ ذلك سيؤثّر على براءته وعفويّته.

يصوّر المسرح للطفل بعض الحقائق التي لا يستوعبها ولا يفهمها في الحياة الواقعيّة، ومن خلال شهادات بعض الأشخاص الذين كانوا أطفالا خلال هذه الفترة، وضّحوا بأنّ بعض الفرنسيّين كانوا يعاملوهم بلطف وحب، ممّا دفعهم إلى حبهم وعدم تقبّل فكرة أنّهم مُؤذين، إلى حدّ اليوم؛ فكلّ ما يتعرّض له الطفل عاطفيّا يرسخ في ذهنه ويؤثّر عليه حتّى بعد كبره؛ ولهذا شعرت جمعيّة العلماء المسلمين بخطورة الوضع وأخذت في التفكير في كلّ الوسائل

الناجعة الممكنة لحماية الأطفال من الاندماج مع الفرنسيّين، والمسرح كان من بين تلك الوسائل.

قضية التزام Question d'engagement

التزم الفن المسرحي في فترة الثورة بالمبادئ القوميّة وكان هدفه الرئيس هو الحفاظ على الهويّة الوطنيّة؛ ويقول محمّد الطاهر فضلاء عن الالتزام في المسرح: "إنّ قضيّة الالتزام في المسرح بمفهومها اللّغوي والاجتماعي والأدبي، ثمّ السياسي قضيّة عالميّة إنسانيّة ما في ذلك شكّ. وهي في نفس الوقت قضيّة ترتبط ارتباطا وثيقا بمصير الأجيال من أمّتنا الكبيرة ووطننا الكبير. ونحن بإزّائها ملزمون على مواجهتها بما تتطلبه من الصراحة والنزاهة والصدق. فالالتزام بقضايا الوطن في كلّ معاركه الدّاخليّة والخارجيّة، وقضايا القوميّة بكلّ ما تفرضه من انضباط أمام التيارات المختلفة بإزاء التكتلات الصغيرة والكبيرة، وقضايا التحرّر والانعتاق، وما تفرضه من التضحيات الفرديّة والجماعيّة. كلّ هذا يجلّ في المسرح –عن المواقف الفرديّة، مهما كان لهذه المواقف وزنها وثقلها" [6] ، فالمسرح، قبل أن يكون قضيّة فنيّة ترفيهيّة، هو قضيّة وطنيّة قوميّة تسهم في محاولة تحرير الوطن وتعزيز المقاومة، لأنّهم في ظروف لا تسمح لهم بالترفيه والتمتّع دون محاولة استغلال هذه الوسيلة للتوعية والتحريض ضد المستعمر.

الايجابيّات Les avantages

للمسرح الموجّه للطفل أهميّة كبرى في تربية وتكوين الأجيال، فهو يحقّق النموّ الفكري، التربوي، الأخلاقي، الاجتماعي والثقافي، بالإضافة الى كونه وسيلة ترفيهيّة تساعد على تحقيق ذلك النمو بقابليّة وفعّالية أكبر؛ فالطفل يميل الى كلّ ما هو فكاهي ومرح، كما يميل الى الألوان والأشكال التي تُستعمل فيه، حيث يتميّز المسرح بامتلاكه لوسائل فنيّة وجماليّة، وبكونه حيويّا وحركيّا، فعلى الرّغم من أنّنا نجد الأشكال والألوان الجميلة في القصص مثلا، إلّا أنّها لا تتحرّك ولا تتفاعل مع الطفل، وكأنّ المسرحيّة تجسّد ما يبنيه في مخيّلته عن قصّة ما، وتسمح له بالتفاعل معها.

تكمن ايجابيّات المسرح بالنسبة للطفل في تنمية شخصيّته وقدراته الخياليّة والإبداعيّة، فاحتكاكه بهذا الفن ينشّط فكره وحواسه ويعدّه لاكتساب الأخلاق والمعارف. "ولعلّ أنّ أهميّة المسرح نابغة من أهميّة الموضوعات المستمدّة من واقع الحياة الاجتماعيّة الماضية والمعاصرة، والمعبّرة عن أغراض المصير الإنساني، وموقف الإنسان منه، وكأنّ هذه الأغراض واقع حقيقي

يتفاعل معه الصّغار، وينفعلون مع الأبطال والشخصيّات المسرحيّة، وينسجمون معهم بحركاتهم وتعليقاتهم. وهذا ما أيّده المختصّون في علم نفس الطفل وعلم النفس التربوي، فالطفل يميل الى المسرح والتمثيل منذ صغره، لأنّه يحب أن يعبّر عن مشاعره بالحركة، والإيماءة، وتعبير الوجه"[7]، وكأنّ المسرح جزء من فطرته، ووسيلة لتفجير مكبوتاته؛ وحتّى تجاوبه مع المسرحيّة التي يشاهدها يساعده على التعبيرعن آراءه ورغباته والترويح عن نفسه، فهو يتفاعل مع أحداثها ويعجب بما تحمله من شكليّات تُحفّزه على الاستجابة لما تدعو إليه. والمسرحية الموجّهة الى الأطفال، تجمع بين المتعة والفائدة، عن طريق الحركة والحوار والموسيقى والضّوء واللّون. فهي لون من ألوان الثقافة الطفليّة، تتجلّى فيها الحقيقة والجمال بأبهى مظاهرهما"[8] تضع الطفل في جوّ من الفرح والبهجة، وفي جوّ من المعرفة والتربية في الآن ذاته. وكان الهدف الأساس من عرض المسرحيّات للأطفال في فترة الاحتلال، زرع الروح القوميّة والدينيّة في نفسه خوفا من أن يتأثّر بالثقافة الفرنسيّة، فالغزو الثقافي هو من أنجع الوسائل للوصول إلى الغزو السياسي والاقتصادي... وبذلك كانت أهميّة المسرح آنذاك، بالرغم من قلّته، هي بالدرجة الأولى إظهار مدى أهميّة التشبث بالمبادئ الوطنيّة للتخلّص من محاولة الغزو التي تعرّضت لها الجزائر.

السلبيات Les inconvénients

على الرّغم من أنّ الوطن والقيم والمبادئ... هي التي تجعل من الإنسان له هويّة وتحدّد مصيره وانتماءه إلى مجموعة معيّنة، إلّا أنّ الطفل الجزائري حُرم من أن يكون طفلا، حيث كانت كلّ الحوارات التي يسمعها هي عن الحرمان، الخطر، الاستشهاد... وهو في مرحلة يعجز فيها عن فهم الكثير؛ وكانت حتّى المسرحيّات التي توجّه له، بالرغم من قلّتها، تصوّر له بشاعة الأوضاع التي يعيشها، وكأنّها عوضا أن ترفّه عنه، تزيد من أوجاعه وآلامه التي لم يستوعب بعد سببها، فهو في مرحلة لا يفهم فيها ما معنى الاحتلال وأسبابه؛ وذلك لطبعه البريء، لكنّ التوعية عن طريق الأدب أو غيره، وإن كانت من أهمّ الوسائل للحفاظ على الاستقلاليّة، تقتل فيه تلك البراءة وتجعل منه إنسانا قاسيا.

لكنّ كلّ هذه السلبيّات التي تعرّض لها أطفال تلك الفترة، أسهمت في تحرير الطفل الجزائري اليوم، وبفضلها يتمتّع بالحريّة ويستم بالعروض المسرحيّة الخالية من آثار العنف والحقد والانتقام، وأصبح المسرح وسيلة تربويّة يتعلّم الطفل منها السلوكات الحسنة في التعامل مع ما يحيط به كما تساعده على اكتساب المعارف المختلفة بعدما أن كان وسيلة للمقاومة بالدرجة الأولى في فترة الثورة التحريريّة.

الاحالات:

1. يوسف مارون، أدب الأطفال بين النظريّة والتطبيق (بحسب النظام التعليمي الجديد)،ط1. (لبنان، المؤسّسة الحديثة للكتاب، 2011)، ص223.
2. العيد جلّولي، النص الأدبي للأطفال في الجزائر: دراسة تاريخيّة فنيّة في فنونه وموضوعاته، د.ط. (ورقلة، مديريّة الثقافة، 2003)، ص ص186-188. بتصرّف.
3. محمّد الطاهر فضلاء، المسرح تاريخا ونضالا: المسرح الجزائري في عهديه (الاحتلالي والاستقلالي)،الجزء الثاني، ط1. (الجزائر، Horizon، 2009)، ص39.
4. عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954)، د.ط. (الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1983)، ص205.
5. العيد جلّولي، النص الأدبي للأطفال في الجزائر: دراسة تاريخيّة فنيّة في فنونه وموضوعاته، ص ص191-202. بتصرّف.
6. محمّد الطاهر فضلاء، المسرح تاريخا ونضالا: المسرح الجزائري في عهديه (الاحتلالي والاستقلالي)، ص 364.
7. يوسف مارون، أدب الأطفال بين النظريّة والتطبيق (بحسب النظام التعليمي الجديد)، ص223.
8. المرجع نفسه، ص223.